

## المحاضرة الثانية

### ❖ مفهوم نظرية الأدب

✓ توطئة:

سلك الكثير من النقاد مسلك التنظير في الأدب، فظهرت مفاهيم مختلفة وتصورات متباينة، وهذا راجع إلى خلفية و زاوية الرؤية التي يتكأ عليها كل من يتعامل مع الأدب، ومن ثم لم يستطع النقاد الوقوف على مفهوم واحد عبر السيرورة الزمنية رغم الجهود المبذولة في هذا المجال، وهنا لا بد أن نقف وقفة لنفرك بين الأدب والنظرية، وهما نوعان من النشاط لهما عالمهما الخاص بهما الذي يختلف عن الآخر، فالأدب ظاهرة نابعة عن قوة ابتكار وإبداع، فهي فن، أما مصطلح النظرية " إن لم يكن علما بأدق معاني هذه الكلمة، فهو ضرب من المعرفة أو التحصيل".<sup>1</sup> وللتذكير فإن مصطلح النظرية حسب ما ذكر عبد الملك مرتاض " جديد في الفلسفة الحديثة ولا سيما في الثقافة العربية، فلم يكن مصطلح النظرية لدى أي واحد من المفكرين العرب القدماء".<sup>2</sup>

هنا نجد أنفسنا أمام مصطلحين متناقضين، الأدب و النظرية، وعليه تتبادر إلى أذهان كل باحث إشكالية: كيف للأدب الذي هو فن أن تحدّه قاعدة هي نظرية؟

نقول: إن النظرية بوصفها علما لا يمكن لها أن تحدّ الأدب بوصفه فناً، ذلك أن الأدب فوق كل قاعدة وأكبر من كل منهج، لكن النظرية هنا جاءت لتخضع هذا الفن لأساس عقلي حتى ترتقي به ليكون علما فقط، له مفاهيمه وقواعده وضوابطه التي تميزه أن يكون أدبا، على اعتبار أن " فهم الأدب لا يتأتى إلا لمن يعالجه... إذ أن عليه أن يترجم خبرته بالأدب إلى مفهومات عقلية، وأن يتمثلها في كيان متناسق، ينبغي أن يكون مقبولا للعقل حتى يصبح معرفة".<sup>3</sup>

- نظرية الأدب، رينيه ويليك و أوستن وارين، تر: عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، 1992م، ص:24.<sup>1</sup>  
- نظرية النص الأدبي، عبد الملك مرتاض، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص:35.<sup>2</sup>  
- نظرية الأدب، رينيه ويليك و أوستن وارين، تر: عادل سلامة، ص:23.<sup>3</sup>

و عليه تصبح نظرية الأدب كما يفهم من التعريف الذي قدّمه أنطوان كومبانيون antoine compagnon مرتبطة بمقامات شتى للأدب، مرتبطة عضويًا بحديثيات الزمان الذي ولد فيه والمكان الذي نشأ منه، في طابع تحليلي يغلب على النظرية وموضوعها<sup>4</sup> فهي تسائل منظري الأدب ومؤرخيه وناقديه بأسئلة إشكالية تطرحها ثم تبحث عن إجابات قد تكون في الغالب متباينة مختلفة من ناقد إلى آخر و من حقبة زمنية لأخرى، تحصيلها وفق منهجية علمية موضوعية دون إصدار الأحكام عليها، فقد أوجدت لنا نظرية الأدب مفاهيم متعددة ووظائف للأدب مختلفة، وتحدثت عن النشأة والطبيعة بأطروحات متباينة منذ أرسطو إلى بدايات التأصيل للنظرية مع رينيه ويليك وأوستن وارين في كتابهما " نظرية الأدب " .

ومن منطلق هذا الذي ذكرناه يتبادر إلى أذهاننا الكثير من التساؤلات: ما مفهوم نظرية الأدب؟ وما هي أهم المنعطفات في خطّ فهم نظرية الأدب قديماً وحديثاً.

### • نظرية الأدب في الفكر الغربي القديم:

الحديث عن نظرية الأدب هو حديث ممتد الجذور في تاريخ الفكر التنظيري الأدبي عند الغرب القدامى والعرب، فجذور النظرية قديمة قدم الأدب نفسه، إلا أنها من حيث التأصيل كنظرية علمية قائمة بذاتها فهي جديدة المفهوم والمنهج والآليات، ظهرت في منتصف القرن العشرين، ويمكن أن نشير هنا إلى أنّ أهم كتاب أصّل لنظرية الأدب هو لصاحبه رينيه ويليك و أوستن وارين. وعلى العموم فنظرية الأدب " تبحث في ظنيات الدلالة ومجلياتها وكيفيات إظهارها للعلن: ما هو الأدب؟ ما هي معاييرها القيميّة؟ " <sup>5</sup> متى نشأ وماهي وظيفته الذي يؤديها؟

نظرية الأدب إذاً في أبسط مفاهيمها هي العلم الذي يهتم بدراسة الظاهرة الأدبية بعامة من حيث الطبيعة والوظيفة والنشأة في سبيل استنباط مفاهيم عامة للأدب، هي مفاهيم مقارنة حذرة، تسائل جمالية وأدبية النص، كما تسائل الصيرورة الزمنية لكيفيات التخلق المرحلي

<sup>4</sup> - ينظر، شيطان النظرية الأدب والمعنى العام، أنطوان كومبانيون، تر: بلقاسم عيساني، منشورات المجلس، 2018م، ص:24.

- شيطان شيطان النظرية الأدب والمعنى العام، أنطوان كومبانيون، تر: بلقاسم عيساني، ص:21.

في إطار علاقة الأعمال ببعضها، فهي تقاوم الغموض والأحكام المسبقة وغير المبررة بأمتن الحجج.<sup>6</sup>

غير أنني لا بد أن أؤكد هنا على أنّ أول بواذر نظرية الأدب بدأت تتشكّل مع أرسطو في كتابه فنّ الشعر " من خلال دراسته للأصناف الأدبية الموجودة في عصره لأن يستنبط مفاهيم نظرية تتصل بنشأة هذه الأصناف وطبيعتها ووظيفتها"<sup>7</sup>، ضمن فلسفة المحاكاة التي أراد منها رفع التهمة التي ألصقها أستاذه أفلاطون بالشعر، إلا أنّ الحقيقة تقول بأنّ أفلاطون يعدّ بحق أول منظر للفن والأدب في التاريخ "<sup>8</sup>.

لقد اعتبر أرسطو الشعر ظاهرة أدبية محكومة بأصول نابعة من الذات الإنسانية ولا تتعداه إلى سواه، فالشعر ليس إلهاما من ربة الشعر كما اعتقد أفلاطون، بل هو جزء من النشاط الإنساني، و حسب رأي أونطوان كومبانيون antoin compaignon فإن أفلاطون وأرسطو لم يكونا بصدد التأسيس لنظرية في الأدب، بقدر ماكانا يأملان نوعا من التفسير للأدب ذاته وليس الدراسة الأدبية أو البحث الأدبي، كانا يبحثان عن قواعد واصفة للأدب.<sup>9</sup>

بقيت نظرية الأدب حبيسة نظرية المحاكاة الأرسطوية في الفن طيلة المرحلة الكلاسيكية الأوروبية، إلى أن بدأت بواذر الانقلاب على هذا المفهوم الأخير باقتراح تعريف جديد مع ظهور كتاب في الجمال بعنوان: **الفنون الجميلة مقتصرة على مبدأ واحد**، للراهب باتو، سنة 1746م، وعنوان آخر: **محاولة جمع الفنون الجميلة والعلوم كلّها تحت مفهوم الإنجاز بذاته**، لكارل فيليب موريتس، سنة 1785م.<sup>10</sup> وفحوى هذين الكتابين يذهب إلى ربط الأدب بدليل طبيعته أي بالجميل، وتجاوز المفهوم القديم الذي ارتبط بدليل وظيفته أي المحاكاة، يقول موريتس: " تكمن فحوى الجميل الحقيقي في أنّه لا يعني شيء سوى نفسه، ولا يقصد

---

- ينظر، شيطان النظرية الأدب والمعنى العام، أنطوان كومبانيون، تر: بلقاسم عيساني، ص:23.<sup>6</sup>  
- في نظرية الأدب، شكري عزيز الماضي، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1993م، ص:32.<sup>7</sup>

- المرجع نفسه، ص:30.<sup>8</sup>

- ينظر، شيطان النظرية الأدب والمعنى العام، أنطوان كومبانيون، تر: بلقاسم عيساني، ص:18.<sup>9</sup>  
<sup>10</sup> - ينظر، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تودوروف، تر: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2002م، ص:10.

سوى نفسه ولا يتمالك غير نفسه، وأنه يكون كلاً ناجزاً بنفسه "11. ومنه غدت هذه المحاولات نقطة انطلاق لنظرية الأدب الحديثة التي تشدد على الرسالة نفسها وليس ما تؤديه.

## • نظرية

### • الأدب في الفكر الغربي الحديث:

في العصر الحديث أخذت نظرية الأدب تتشكل بمنحى مغاير مع ظهور المذهب الشكلاني الروسي الذي أرسيت دعائمه على أطروحات دي سوسير اللسانية، فالشكلاونيون " يرون أنّ اللغة الأدبية هي مجموعة من الانحرافات عن المعيار ونوع من العنف اللساني، أي أنّ الأدب نوع خاص من اللغة مقابل اللغة العادية التي تستعملها عادة"12. ومعها بدأت تظهر مفاهيم مختلفة متباينة تتجاوز الوظيفة التي يؤديها الأدب \_ والتي غالباً ما انبنت عليها النظرية \_ إلى مفاهيم طبيعته.

سادت هذه النظرة تجاه الأدب في العصر الحديث لنجد الكثير من النقاد الغربيين يذهبون مذهب الشكلانيين الروس و يقترّبون من تصوراتهم، و يحصرّون الأدب في قيمة بنية النص ذاته وعزله عن العوامل\*، ومن هؤلاء نذكر:

#### 1) - رينيه ويليك (1903م/1995م): انطلق رينييه ويليك في تفسيره ظاهرة الأدب

وهو مدرك الموقف السائد التي تحكمه مؤثرات موروثه من القرن السابق، مؤثرات كان يرى فيها غموض الرؤيا بالنسبة للمفاهيم الأساسية، ولما ينبغي عليه الدراسة الأدبية، يعرف رينييه ويليك نظرية الأدب " بأنها دراسة مبادئ الأدب، وتصنيفاته ومستوياته"13. إيماناً منه بأن الظاهرة الأدبية ذاتية الغاية لا تقع على تبرير وجودها خارجاً عن ذاتها.14 وهذا مفهوم

- المصدر نفسه، ص:10.11

- نظرية الأدب - قراءة - فهم - تأويل - (نصوص مترجمة)، أحمد بوحسون، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1،

2004م، ص:13.12

\* هناك من اختلفت نظرتهم للأدب من حيث المبدأ فيربطه بالوظيفة التي يؤديها أي بمفعول الأدب في جانبه الاجتماعي و الأخلاقي و النفسي و العاطفي والانفعالي، ففيلسوف مثل هايدغر - كما يذكر تودوروف - حين يتساءل على ماهية الشعر يقع على مفهوم وظيفي.

- نظرية الأدب، رينييه ويليك و أوستن وارين، تر: عادل سلامة، ص:11.13

- ينظر، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تودوروف، تر: عبود كاسوحة، ص:14.14

يقترّب من الطرح البنوي على اعتباره يؤمن بأنّ جوهر الأدب هو الاستعمال الخاص للغة. ثم لم يكتف بهذا التعريف ليخلص إلى القول بأنّ عنصر التخيل هو السمة البارزة في الأدب.<sup>15</sup> ويفهم من هذا الكلام أنّ رينيه ويليك ينزلق بمفهوم الأدب إلى عنصر التخيل على اعتباره الميزة البارزة في العمل الأدبي، مع ما ذكره من الاستخدام المنتظم للغة، كما يرى هذا الأخير.

ومنه أيقن رينيه ويليك في نظريته للأدب أنه ليس فلسفة أو تاريخاً أو نقداً أو أيّ شيء آخر، بل إنه شيء غامض لا يحس ولا يدرك، وهذا ما يفسره قوله أنّ الأدب: " نشاط خلاق فهو فنّ"<sup>16</sup> أي كتابة ليست حقيقية بالمعنى الحرفي للكلمة فهي كتابة تخيلية Imaginative، مستنكراً بذلك المفاهيم التي تقول بأنّ الأدب كلّ شيء قيد الطبع. أو ما تداول على أنه فقط استعمال خاص للغة، ونقصد هنا نظرة الشكلايين الروس للأدب.

هذا الوعي بحقيقة الأدب دفعه للتركيز على الاتجاهات العامة، كالاتجاه الوجودي الشكلي، ويتجاهل الاتجاه السوسولوجي الذي أصبح نمطا من الدراسة الحديثة، مع محاولته التفصيل لتعريف النظم الثلاثة الأساسية للدراسة الأدبية وهي النظرية الأدبية و النقد الأدبي والتاريخ الأدبي.

أي دراسة الظواهر الأدبية والجمالية دراسة موضوعية في سياقها السوسيو تاريخي أي النظرة إلى الأدب في شموليته " على أنه نظام مترابط وبين النظرة إليه على أنه سلسلة من الأعمال مرتبة زمنياً، وهي أجزاء متكاملة من العملية التاريخية " <sup>17</sup>، ولهذا لم يفرق رينيه ويليك في نظريته بين الأنماط الثلاثة، التاريخ الأدبي والنقد الأدبي، والنظرية الأدبية لأنها تستلزم على حدّ قوله بعضها بعضاً بشكل يبلغ من شموله أننا " لا نستطيع تصور النظرية الأدبية بدون نقد أو تاريخ، أو النقد بدون نظرية أو تاريخ، أو التاريخ بدون نظرية ونقد " <sup>18</sup>.

**(2) - جون بول سارتر (1905م/1980م):** يعالج جون بول سارتر مفهوم الأدب في كتابه " ما الأدب؟ " في فصل من نظريته وهو يؤمن بأن لا قيمة للأدب إن لم ينزل به الأديب إلى

- ينظر، نفس المصدر، ص: 14.15

- نظرية الأدب، رينيه ويليك و أوستن وارين، ص: 24.16

- نظرية الأدب، رينيه ويليك و أوستن وارين، تر: عادل سلامة، ص: 58.17

- المصدر نفسه، ص: 60.18

معانقة المآسي والأحزان التي يعانيتها الإنسان في مجتمعه. وهذا المفهوم يعود بنا إلى المفاهيم الأولى للأدب التي تربطه بالوظيفة وتبعده عن اللغة الخاصة ذاتها التي يتشكل منها الأدب، وهنا الوظيفة التي يقصدها سارتر هي الالتزام.

إنّ نظرية الأدب عند هذا الأخير راحت تبحث في ماهية الأدب ومنهج الكتابة وتوجهها وكيفيةها، وحدود التزامها ومناطق حرّيتها أي التركيز على علاقة الأدب بمتطلبات واقع المجتمع. فسارتر يعتبر أنّ الكلمات آلات تستخدم والاجتهاد يكون في كيفية انتزاع هذه الدلالة منها لتحقيق الغاية النفعية للغة، مع تنبيهه إلى عدم استعمال اللغة المعقدة الغامضة، ولهذا نجده يفضل لغة النثر على الشعر على اعتبار أنّ الأولى طيبة و هذه الأخيرة عصية على صاحبها.<sup>19</sup>

تصبح قيمة الأدب وفق هذا التصور على حسب التزام الأديب بقضايا عصره الذي نشأ فيه، وليس في نواحيه الفنية لذاتها كما يزعم الطرح البنوي، فما إن ينقضي العصر يتحول العمل الأدبي إلى رسالة لا علاقة لها بالجودة والرداءة. ولا يمكن فهم تصور سارتر لمفهوم الأدب إلاّ بالعودة إلى فلسفته القائمة على المذهب الوجودي الماركسي، وهو مذهب يؤمن بأن الحديث عن الأشياء يكون وفق ما نراه ونلمسه.

هذا المفهوم الذي قدمه سارتر نابع من إيمانه بأنّ الواقع لا بد أن يكون أكثر حضورا بتعاسته وحقيقته وأنّ عليه ككاتب أن يتكلم عن واقعه ومشاكله، مبررا في ما ذهب إليه بقوله: أنك إذا كنت أمام طفل يموت جوعا لا أهمية للغنيان ولا وزن له، وهذه هي مشكلة الأديب في تصوره، أي لا قيمة للأدب إن لم ينزل به الأديب إلى معانقة المآسي والأحزان التي يعانيتها الإنسان في مجتمعه.

**(2) \_ سفيتان تودوروف (ولد: 1939م):** يذهب تودوروف في مفهومه للأدب ضمن فصل من فصول كتابه المعنون بـ: " مفهوم الأدب؟ " مذهباً بنويا لغويا، منطلقا من الشكّ في مشروعية الأدب، داحضا فكرة من ذهبوا مذهب القول بأنّ الاستخدام الأدبي يعرف بطابعه المنهجي وهو مفهوم ينطبق على حدّ قوله انطباقا خاصا بالنثر، أو ممن انطلقوا من السمة

- ينظر، ما الأدب، سارتر، تر: محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، دط، دتا، ص: 13.<sup>19</sup>

التخييلية البارزة والتي تنطبق بالشعر، متسائلا: <sup>20</sup> ما الذي يميز الأدب عما ليس أدبا؟ وما هو الفارق بين ما هو استخدام أدبي للغة وبين استخدام ليس أدبي لها؟

هذه الإشكالات دفعته بإدخال مفهوم نوعي بالنسبة لمفهوم الأدب: هو مفهوم الخطاب، معتبرا إياه النظير البنيوي للمفهوم الوظيفي لاستخدام اللغة أي السياق الاجتماعي، فوجود كيان وظيفي \_ هو الأدب \_ يستدعي وجود كيان بنيوي، ليصل إلى أنّ مفهوم الخطاب في تصورهِ مكون من: " عبارات بيّنة، وبالاختصار من بيانات، إلّا أنّ تفسير البيان محدّد، من ناحية، بالعبارة التي نبينها ومن ناحية أخرى ببيانه نفسه". <sup>21</sup> ولا تفهم نظرة تودوروف للأدب إلّا بالعودة إلى نظريته في الأجناس الأدبية، وهي نظرية تعتبر الجنس الأدبي تكرار تقنين للخصائص الاستدلالية من مجتمع ما، منتقلا من الانتشار إلى الفهم، وهي محكومة كما يرى بصياغة سلسلة من التحولات التي تتحكم بمولد الأجناس، ليصل إلى أنّ ليس هناك هوة بين الأدب وما ليس بأدب، وأنّ الأجناس الأدبية تعثر على أصلها، وبكل بساطة، في الخطاب الإنساني. <sup>22</sup>

كما نجد تودوروف في كتابه " نظرية الشعر " يعتبر الأدب: " ليس نظاما رمزيا أوليا (كما يمكن للرسم مثلا أن يكون أو كما هو شأن اللسان بمعنى من المعاني) وإنما هو نظام ثانوي". <sup>23</sup> وهنا نقف لنتساءل: ماذا يقصد بالنظام الثانوي؟

يقصد بالنظام الثانوي على حدّ قوله: الذي يتجاوز اللغة كمادة خام. إذا لدينا لغة هي نظام رئيسي (مادة خام)، وأدب يستنتق هذه المادة الخام التي هي لغة، ليشكل لنا تشكيلا مستقلا عن هذه اللغة التي نعرفها. مع التأكيد على نفس الفكرة التي تطرق إليها سابقا في كتابه مفهوم الأدب، وهي عسر الوصول إلى الفرق بين ما هو أدب وما ليس بأدب. <sup>24</sup>

ومن هنا نجد أنفسنا أمام مجموعة من التعاريف البنوية التي يقدمها تودوروف للأدب منها:

---

- ما الأدب ودراسات أخرى، تودوروف، تر: عبود كسوحة، ص: 17. <sup>20</sup>

المصدر نفسه، ص: 26. <sup>21</sup>

- ينظر، المصدر نفسه، ص: 40. <sup>22</sup>

- نظرية الأجناس الأدبية دراسات في التناص والكتابة والنقد، تودوروف، تر: عبد الرحمن بوعلي، ص: 31. <sup>23</sup>

- ينظر، المصدر نفسه، ص: 31. <sup>24</sup>

\_\_ الأدب تخيل، مع التأكيد على أنه ليس كلّ تخيل أدبا.

\_\_ الأدب لغة منهجية تستأثر لنفسها بالاهتمام، فتصبح ثمينة بتفسير غايتها بنفسها، مع نفي هذا التعريف دون تردد مبرراً ذلك أنه أيضا لا يسعنا القول أن الخطاب القضائي أو السياسي، ليس منظما ولا يخضع لقواعد النظام.

\_\_ الأدب تشكيل خاص مستقل عن اللغة.

(4) \_\_ تيري إيغلتن (ولد: 1943م): بالانتقال إلى تيري إيغلتن نجد مفهوم الأدب يقترب من تصورات الشكلانيين الروس، ولعل ما ذكره من تعريف للأدب يوحي بذلك يقول: " الأدب ليس تبعا لما إذا كان تخياليا أو تخيليا، وإنما لأنه يستخدم اللغة بطرائق غير مألوفة، فالأدب في هذه النظرية هو نوع من الكتابة التي تمثل عنفا منظما يرتكب في حق الكلام الاعتيادي ".<sup>25</sup> ويفهم من هذا التعريف أن إطلاق لفظة الأدب على كلام لا يتأتى إلا حينما تتعدى هذه الكلمات معانيها المجردة، إلى معان تستميل القارئ وتجذبه إليها لكن في حدود اللغة ذاتها ومن حيث هي موضوعات تحكمها قوانين تتبع من داخلها وليس من خارجها. لقد حاول إيغلتن من خلال إثارة سؤال: ما الأدب؟ أن يخلخل المفاهيم والتصورات التقليدية للأدب، كما حاول تقديم تصورات نظرية جديدة له، فمفهوم الأدب عنده هو الاستخدام الخاص للغة على اعتبار أن اللغة تشير إلى نفسها فقط، ثم يشير إلى فكرة أن

الأدب ليس مر  
تصوره هو حق  
النص، مستبعد  
بسياق خارج ال  
الصوت. الصور  
الأدبية الشكلية  
وليس عنصر

- نظرية الأدب، تيري إيغلتن، تر: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1990م، ص: 13.<sup>25</sup>  
- ينظر، مقدمة في نظرية الأدب، تيري إيغلتن، أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1991م، ع11، ص: 12.<sup>26</sup>



و هذا المعنى الذي ذهب إليه إيغلتنون في تصوره لمفهوم الأدب يبقى ضمن المفاهيم التي ترى أن الأدب تشكيل مستقل عن اللغة.